الحوار الضمني في نهج البلاغة
مقاربة تأويلية

م. د. علي حسن هذيلي
المديرية العامة لتربية ميسان

الحوار الضمني في نهج البلاغة- (ملخص البحث)

عندما نتحدث عن "حوار ضمني"، في أي خطاب، فلا بدَّ أنْ يكونَ مسبوقاً بحديثٍ عن "حوار صريح"، بمعنى حضور المتحاورين المباشر، وما يترتب عليه من إزالة الالتباس المتأتي من غياب أحدهما. هذا الالتباس سيكون واضحاً وبيِّناً عندما يقرأ أحدُنا كتاباً "ما"، فتتولد لديه الكثير من الاستفهامات التي تحتاج إلى جواب، لذا سيضطر إلى الاجتهاد والتأويل، فإذا كان القارئ من أصحاب القلوب النظيفة، فبها ونعمَتْ، وإلا، فإنَّ مخاطر التأويل ستكون كبيرة، عبر ضياع المقاصد التي يريدها المؤلف أو النص، ذلك أنَّ النص، أحيانا، يعمل في غير منطقة المؤلف. وهذا لا يعني أنْ ليس من حق القارئ أنْ يختلفَ مع المؤلف، بل معناه أنْ تكونَ القراءةُ موضوعيةً، وأمينة، وذات مقاصد تنويرية بعيدة. لذا فليس الغاية من الحوار إزالة الاختلاف، ذلك أنَّه من طبيعة البشر أنْ يختلفوا، "ومن آياته اختلاف السنتكم وألوانكم"، واختلاف اللسان لا يعني تعدد اللغات وكثرتها وموتها وحياتها فقط، بل هو يعني تعدد الفهم والتأويل، وضرورة انفتاحه على الغيب، عبر رؤية تؤمن بثنائية الغيب والشهادة، من دون أنْ تغلب أحدهما، كل ما هناك أنها تتعامل مع الأول- الغيب- بوصفه تأويلا بعيدا للظاهرة، ومع الثاني- الشهادة- بوصفه تأويلا قريبا يمكن امساكه، والتلويح به إزاء الرؤية العدمية التي ترى أنَّ النصَ، أي نص، ليس ذا دلالة، بل مجرد متاهة لا تؤدي إلى شيء!

نعم ليست الغاية من الحوار إزالة الاختلاف، بل الخلاف، والفرق كبير، فإذا كان الثاني- الخلاف- يقوم على الصراع والصدام والمغالبة، فإنَّ الأول يقوم على التساوي في الحقوق والواجبات، مع مراعاة المقامات طبعا، وإلا فإنَّ الحوار سيفقد ماهيته ووجوده. إذن فنحن إزاء نوعين من الحوار: صريح وضمني، وإذا كنا قد اعطينا معنى واحداً للحوار الضمني، عبر مثال القراءة التأويلية، فإنَّ المعنى الثاني الذي نريده يتجلى في مثل قول الإمام (ع): **(يا بُنيَّ إياكَ ومصادقةَ الأحمق، فإنَّهُ يريدُ أنْ ينفعَك، فيضرك، وإياكَ ومصادقةَ البخيل، فإنَّهُ يبعد عنك أحوج ما تكون إليه، وإياكَ ومصادقةَ الفاجر، فإنَّهُ يبيعكَ بالتافه، وإياكَ ومصادقةَ الكذاب، فإنَّهُ كالسراب، يُقرِّبُ عليكَ البعيد، ويُبْعِدُ عنك القريب)** فهذا المثال، بفقراته الأربع، مكون من جملتين: إنشائية، وخبرية وبينهما سؤال مفترض لسائل غائب، أو قل مضمر، أو ضمني، وهذا ما سنبينه في ثنايا البحث، بعد أن نبحث عن نظائره من الأمثلة التي تسلك السلوك نفسه في افتراض سائل، ومن ثم الإجابة عن أسئلته بطريقة

حجاجية اقناعية، تفتح العبارة وتغلقها في آن، لأنها تمتلك مفاتيح الكون والوجود، كيف لا، وهي تردد: سلوني قبل أن تفقدوني، فوالله لأنا بطرق السماء أعلم مني بطرق الأرض.

The implicit dialogue in NAHJ AL-BALAGHA book.

When we talk about implicit dialogue in any text, it has to be Preceded by explicit dialogue, in mean of direct arguers presenting, to avoid misunderstanding of absence. This absence would be clear and obvious when we read a book and generate enquires to be solved. This forced the reader to interpret and (hermenutize). And if the reader was having a good heart, then good. If not, then, the risks of hermeneutics would be dangerous by losing the original meanings of the writer and his text. That never means that the reader haven't the wright to be differed with the writer, but means the reading process have to be objective and honored and has a farther enlightenment goals. (from his AIAT –proves- the differences in your languages) this difference not just in languages as it is. But the differences are in the understanding and realization as well. This would be fulfilled by believing in the duality of (seen-unseen) without conquered one another. It would just deal with unseen as a farthest hermeneutics and with seen as nearest one. It holds the nearest meaning and wave it in front of the Nihilism face which believed that the text (any text) has no meaning and just a banality go to nowhere.

Yes, the goal of dialogue is not to removing difference but to removing disputing, and the difference is too clear between them. If the second (disputing) depends on conflict and conquering, the first depends on equality in rights and Duties, with considering the contexts that the dialogue went with, if not the dialogue loss his Existence and essence. Then, we are about two kinds of dialogues, explicit and implicit, and if we were giving one meaning to implicit one by hermeneutic reading instance as a dialogue with the writer, then, the explicit dialogue Manifests in ALIMAM ALI text (my son, never go with the fool, he want to Benefit you but harm, never go with Stingy because he drift away when you need him, never go with licentious, because he would replace you with banality. Never go with Liar because he like the mirage nearing the far and drifting the near). This instance with its four

paragraphs consists of two sentences: compositional and statement, with an assumption question by an absent Inquirer (or say an implicit one), and this what will show in this article after searching its similarities, and then answering (his questions) in an argument and persuading way, opens the phrase and closes it in the same time. Because it has a universal keys, way not and it repeats: ask me before losing me, swear by God I know more about heavens then the earth.

المقدمة

الحمد لله الذي لا يبلغ مدحته القائلون، ولا يحصي نعمائه العادّون، ولا يؤدي حقه المجتهدون، الذي لا يدركه بعدُ الهمم، ولا يناله غوصُ الفطن، الذي ليس لصفته حدٌ محدود، ولا نعتٌ موجود، ولا وقتٌ معدود، ولا أجلٌ ممدود، وصلى الله على محمدٍ وآله المصطفين الأخيار، وصحبه العاملين بكتاب الله وسنة رسوله، وسلم تسليماً كثيراً، وبعد:

الحوار في اللغة: الرجوع عن الشيء والارتداد عنه. (حار): رجع، والمحاورة المجاوبة([1]). وهم يتحاورون: أي يتراجعون الكلام([2]). والحور: التردد، وحار الماء في الغدير: تردد فيه، وقولهم: "نعود بالله من الحور بعد الكور"، أي، من التردد في الأمر بعد المضي فيه. وكلمته فما رجع إليَّ حواراً، أي جواباً... والحواريُّون: هم أنصار نبي الله عيسى (ع)، سُمُّوا حواريّين، لأنهم كانوا يطهرون نفوس الناس، بإفادتهم الدين والعلم([3]).

وفي الاصطلاح: مراجعة الكلام وتداوله بين طرفين، أو أكثر، لمعالجة قضية من قضايا العلم والمعرفة، بأسلوب متكافئ، يغلب عليه طابع الهدوء والطمأنينة، والبعد عن الخصومة والمغالبة وحب الظهور. وهو مهارة ضرورية، لتخطي الكثير من الأمور التي تواجهنا في الحياة. وكما قلنا: لا بد له من طرفين أو أكثر، ولكننا أخترنا، هنا، نوعا آخر، يختفي فيه أحد المتحاورين ليبقى الآخر، واسميناه الحوار الضمني أو المضمر، لا فرق في ذلك إلا بالمقدار الذي يفترق فيه هذا المفهومان المترادفان، ولا بد أنْ يكون في الكلام قرينة أو دليل على غياب الآخر، ومن ثم مشروعية حضوره، بوساطة السؤال والجواب.

وقد تكون حورانا هذا من مبحثين: الأول بعنوان: التأويل بوصفه حواراً ضمنياً، حيث يحضر النص بين يدي القارئ، والنص، أي نص، عبارة عن جمل تترد بين القطع والاحتمال، فالجملة أما واضحة المعنى، محددة الدلالة، أو غير ذلك، وهذه الأخيرة تتطلب تأويلا من القارئ، وهو بهذا إنما يحاور المؤلف في الاحتمالات الأخرى التي يقترحها النص، ذلك أن النص، أحيانا، يعمل في غير منطقة المؤلف. أما المبحث الثاني فقد حمل عنوان: السؤال الضمني، حيث يقدم المتكلم، أو المؤلف، جملتين، تكون الثانية توضيحا للأولى، أو تعليلا لها،

([1]) مختار الصحاح: ١٦١
([2]) لسان العرب: مادة حور.
([3]) الرافد لألفاظ القرآن الكريم: ٢٢٨

أو تفسيراً، أو تأويلاً، بعد أن يجرد من نفسه محاوراً، أما المقاربة، فقد كانت تأويلية، تحاول أن تقرأ ما وراء النصوص، وتحفر فيها. والله من وراء القصد.

المبحث الأول: التأويل بوصفه حواراً ضمنياً

عندما نتحدث عن "حوار ضمني"، في أي خطاب، فلا بدَّ أنْ يكونَ مسبوقاً بحديثٍ عن "حوار صريح"، بمعنى حضور المتحاورين المباشر، وما يترتب عليه من إزالة الالتباس المتأتي من غياب أحدهما. هذا الالتباس سيكون واضحاً وبيِّناً عندما يقرأ أحدُنا كتاباً "ما"، فتتولد لديه الكثير من الاستفهامات التي تحتاج إلى جواب، لذا سيضطر إلى الاجتهاد والتأويل، فإذا كان من أصحاب القلوب النظيفة، فبها ونعمَتْ، وإلا، فإنَّ مخاطر التأويل الزائغ ستكون كبيرة، عبر إبعاد المقاصد التي يريدها المؤلف أو النص، واستبدالها بمقاصد أخرى لا تنتمي إلى فضاء الاثنين، بل إلى فضاءات أخرى، هي أقرب إلى القارئ منها إلى النص. والنتيجة المنطقية لتلك القراءة أنْ يفقد النص الإبداعي قيمته ووجوده، ويموت كما مات مؤلفه من قبل. ومن ثم وجب على القارئ الحصيف أنْ يعيد للمؤلف والنص قيمتهما. ولا نعني بالمؤلف هنا الشخص، فتلك قراءة نفسية تترك النص لتنشغل بغيره، بل المعنى الذي يريده، أي المؤلف بوصفه منتجاً للمعنى، ومبدعا للمفاهيم، وقيمةُ كلِّ أمرئٍ ما يُحْسِن.

وهذا لا يعني أنْ ليس من حق القارئ أنْ يختلفَ مع النص أو المؤلف، بل هو حق مكفولٌ له، بشرط أنْ تكون القراءةُ موضوعيةً، وأمينة، وذات مقاصد تنويرية بعيدة. لذا فليس الغاية من الحوار إزالة الاختلاف، ذلك أنَّه من طبيعة البشر أنْ يختلفوا، بل إنَّ "من آياته اختلاف السنتكم وألوانكم"، واختلاف اللسان لا يعني تعدد اللغات وكثرتها، وقوتها وضعفها، وفقرها وغناها، وموتها وحياتها فقط، بل هو يعني تعدد الفهم والتأويل، وضرورة انفتاحه على الغيب، عبر رؤية تؤمن بثنائية الغيب والشهادة، من دون أنْ تغلب أحدهما على الآخر، كل ما هناك أنها تتعامل مع الأول– الغيب– بوصفه تأويلا بعيداً للظاهرة، ومع الثاني– الشهادة– بوصفه تأويلاً قريباً يمكن امساكه، والتلويح به إزاء الرؤية العدمية التي ترى أنَّ النصَ، أي نص، ليس ذا دلالة، بل هو مجرد متاهة، أو هوّة، لا تؤدي إلى شيء.

نعم، ليست الغاية من الحوار إزالة الاختلاف، بل الخلاف، والفرقُ بين الاثنين كبير، فإذا كان الخلاف يقوم على الصراع، والصدام، والمغالبة، فإنَّ الاختلاف يقوم على التساوي في الحقوق والواجبات، مع مراعاة المقامات طبعا، أي السياقات التي يردُ فيها الحوار، أو ما سُمِّيَ بمقتضى الحال، وإلا فإنَّه، أي الحوار، سيفقد ماهيته ووجوده.

إنَّ رسالة الحوار، على الأغلب، واضحة لا سيما في الكلمات المنطوقة، وقد يلاحظ المشاركون في الحوار وضعية الجسم، وتعبيرات الوجه، والتلميحات التي لا تُنْطَق من باب اللباقة، أو اللياقة، أو التقية، وكل ذلك سيكون شريكا في وضوح الدلالة. وأحيانا يبحث المشاركون عن "المعنى الضمني" عبر مستويات عديدة ومختلفة، كلها تؤدي إلى قراءة ما بين السطور أو المسكوت عنه، ذلك أنَّ "قراءة النص اقتناع (ضمني) بقابليته

للفهم، وكل عملية فهم، كما يقول علم النفس، هي رد المقروء الآن إلى مقروء من قبل"([٤])، ربما لأن النص إنْ هو إلا نتاج نصوص سابقة، والحق، إنَّ الإمام (ع) لم يقل كلمة إلا وأعطى أصلها، وبين فلسفتها لا سيما تلك الكلمات التي تتنبأ بسؤال ضمني من الآخر، ذلك لأنه يدرك أنَّ الإنسان العاقل إنما يبحث عن إجابة للأسئلة التي تعرض له، ولكن ليس بالضرورة أنْ يمتلك جواباً، لذا فإنه سيلجأ إلى أهل العلم والمعرفة، ليجد عندهم مراده، وقد قال (ع): "**العلم نهر، والحكمة بحر، والعلماء حول النهر يطوفون، والحكماء وسط البحر يغوصون، والعارفون في سفن النجاة يسيرون**"([٥])، ولعله (ع)، سيكون على رأس هؤلاء الذين يُرْجَع إليهم، وقد قال الرسول (ص): "**أنا مدينة العلم، وعلي بابها، فمن أراد العلم فلْيأتِهِ من بابه**"([٦]).

فلْنبدأ من هذا الحوار الصريح: "**قيل لأمير المؤمنين (ع): "صف لنا العاقل؟" قال: "هو الذي يضعُ الشيءَ في موضعه". قيل: "فصف لنا الجاهل": قال: "قد فعلت**"([٧]).

لكي نفهم قول الإمام هذا علينا أنْ نرجعه إلى سياقه، أعني الرؤية الكلية التي ينطلق منها الإمام، وتتفرع منها كلماته الأخرى التي تتحدث في الموضوع نفسه. نعم، كان بمقدور الإمام (ع) أنْ يقول: "الجاهل هو الذي لا يضع الشيء في موضعه"، أو "هو الذي يضع الشيء في غير موضعه"- والفرق بين التعبيرين كبير، لمن عرف نظام اللغة، وكشف بعضاً من أسراره- ولكن الإمام (ع) لم يفعل، لأنه يحترم عقل السائل، ويقدر امكاناته، لذا فهو بهذا الجواب- قد فعلتُ- إنما يطلب منه المشاركة في اكتشاف الوجود، والمفاهيم المعبرة عنه، لا سيما تلك المفاهيم التي تتنازع طرفيه، في مثل قوله (ع): "**حق وباطل، ولكلٍ أهلٌ، فلئن أمِرَ الباطلُ لقديماً فعل، ولئنْ قَلَّ الحقُ فلربما ولعل**"([٨])، ومن ثم يكفي أنْ نعرفَ أحد الضدين لنكتشف الآخر، أليسَ بضدها تتميزُ الأشياءُ؟ ما يعني أنَّ المفهوم الواحد سيتضاعف، عند المتلقي، ليكون مفهومين، فضلاً عمّا بينهما من (حال)، نفاها بعض الفلاسفة، وأثبتها آخرون، عندما وجودوها بين ضدين، قد يؤولان إليها، أو تؤول إليهما، ولعل السيد "هيجل" سيكون أحد هؤلاء، وقد قال أمير المؤمنين (ع): "**اليمين والشمال مضلة، والوسطى هي الجادة، عليها باقي الكتاب، وآثار النبوة، ومنها منفذ السنة، وإليها مصير العاقبة**"([٩]).

وهكذا فإنَّ بعض المفاهيم تتطلب حالا تؤول إليه، وبعضها الآخر يكتفي بنفسه من دون حال، لتكون العلاقة ثلاثية أحياناً، وثنائية أحياناً أخرى. وتلك فلسفة انفرد بها الإمام (ع)، بعد أنْ حصرَ الفلاسفة أنفسهم في واحدة، على طريقة الإنسان الغربي ذي البعد الواحد، لأنه، أي الإمام (ع)، لا يتعامل مع المفاهيم بوصفها كائنات ذهنية مجردة ومتعالية، بل هو يربطها بالواقع، وبالطريقة التي يجب أنْ نتعامل بها معه، ولهذا نجده (ع) حَدّياً وصارماً في بعض المواقف، لأنها من دون حال، ومَرِناً ومتسامحاً في بعضها الآخر، لأنْ ثمة حال. وهو

([٤]) استراتيجية التسمية في نظام الأنظمة المعرفية: ٨
([٥]) شرح أصول الكافي: ج٢- ٦١
([٦]) الغدير: ج٣- ٩١
([٧]) نهج البلاغة: ٦٠٤
([٨]) نهج البلاغة: ٦٦
([٩]) نهج البلاغة: ٦٦

في "الحالين" إنما يطلب وجه الله (تعالى)، وهو (ع) القائل: "**قد يرى الحُوَّلُ القُلَّبُ وجهَ الحيلةِ، ودونها حاجزٌ من تقوى الله، يراها رأيَ العين، وينتهزُها مَنْ لا حريجة له بالدين**"([١٠]) الذي لا يرى الله تعالى، ولا يشعر بوجوده في التفاصيل، أما هو (ع)، فيقول: "**ما رأيت شيئا، إلا ورأيتُ اللهَ قبله، وبعده، ومعه وفيه**"([١١]). وتلك رؤية عندما سألَه ذعلب اليماني عنها في حوار صريح، قال: "**أ فأعبد ما لا أرى؟**"، **قال:** "**وكيف تراه؟**" **قال:** "**لا تدركه العيون بمشاهدة الابصار، ولكن تدركه القلوب بحقائق الايمان**"([١٢]). إذن فالعاقل هو الذي يضع الشيء في موضعه، ولكنه لا يستطيع أنْ يفعل ذلك ما لم يرَ اللهَ قبله، وبعده، ومعه، وفيه، وتلك هي سيرة العقلاء الذين يرون الله بقلوبهم، ويظنون أنَّها رؤية لها علاقة بحسن سلوكهم، والعقل، بعدئذ، في عُرْفِ علي: "**ما عُرِفَ به الرّحمنُ، واكْتُسِبَ بهِ الجِنَانُ**"([١٣]).

وهكذا، فعندما نعيد المفهوم إلى سياقه الكلي، يصبح للعقل معنى آخر، ربما هو غير ما ورد في كلمات الإمام (ع)! أو بتعبير أدق: هو ما ورد في كلمات الإمام، بعد إضافة الله (سبحانه) قبله، وبعده، ومعه، وفيه. وهكذا يحقق التأويل مقاربته عندما تجتمع الكلمة والفضاء الذي تنتمي له، أعني فضاء التوحيد لا فضاء الحجارة، إذا كان للحجارة فضاء، لأن الأول مفتوح على المطلق، وهو يستمد نوره منه (سبحانه)، كان كونفوشيوس، الذي قيل: إنّه نبي، ربما سبق الإمام (ع) إلى هذا المعنى عندما قال: "ضع الالفاظ موضعها، فحين لا توضع الألفاظ موضعها تضطرب الأذهان، وحين تضطرب الأذهان تفسد المعاملات، وحين تفسد المعاملات لا تدرس الموسيقى، ولا تؤدى الشعائر الدينية، وحين لا تدرس الموسيقى، ولا تؤدى الشعائر الدينية تفسد النسبة بين العقوبة الإثم، وحين تفسد النسبة بين العقوبة الإثم لا يدري الشعب على أي قدميه يرقص، ولا ماذا يعمل بأصابعه العشر؟"([١٤]).

نقول ذلك ونحن نستحضر دائرة "ديلتاي" التأويلية، كل ما هناك أننا ننتقل بتلك الدائرة من فضائها اللغوي إلى فضاء كوني يخضع للمنطق نفسه، على طريقة المفكر الماركسي "لوسيان كولدمان"، وهو ينتقل من فضاء البنية إلى فضاء الكون والمجتمع والتاريخ([١٥])، من دون أنْ نكون ماركسيين طبعا، اعني أننا سنأخذ روح النظرية، من دون أنْ نتورط في تفاصيلها المادية، "فلكي نفهم أجزاء أية وحدة لغوية، لا بد أنْ نتعاملَ مع الأجزاء، وعندنا حسٌ مسبقٌ بالمعنى الكلي، لكننا لا نستطيع معرفة المعنى الكلي إلا عبر معرفة مكونات أجزائه. هذه الدائرية، في الإجراء التأويلي، تنسحب على العلاقات بين معاني الكلمات المفردة ضمن أية جملة، وبين معنى الجملة الكلي، كما تنطبق على العلاقات بين معاني الجمل المفردة في العمل الأدبي، والعمل الأدبي ككل"([١٦]). وهذا يعني أنها دائرة مفتوحة، لأننا نستطيع التوصل إلى "تأويل مشروع" عبر التبادل المستمر بين

([١٠]) ينظر: نهج البلاغة: ١٠٢
([١١]) بحار الأنوار: ج٤- ص٤٤
([١٢]) نهج البلاغة: ٣٢٠
([١٣]) الكافي: ج١- ص١١
([١٤]) حياتي في الشعر: ١١٠
([١٥]) ينظر: الإله الخفي: ٢٣- ٤٦
([١٦]) دليل الناقد الأدبي: ٨٩

احساسنا المتنامي بالمعنى الكلي وفهمنا الاسترجاعي لمكوناته الجزئية. وتلك هي فلسفة "منطقة الفراغ" التي ابدعها "محمد باقر الصدر"، وهو يتحدث عن علاقة المتغير بالثابت، والجزئي بالكلي، والخاص بالعام، والواقعي بالمثالي، والمحلي بالعالمي. وهذا ما يحتاج إلى تفصيل، خارج هذا البحث.

حسناً، بعد ذاك الحوار الصريح، حوار العقل والجهل، لننتقل الى حوار آخر، لا هو صريح ولا هو ضمني، اعني تلك البينية التي اسميناها الحال، والتي لنْ تكون واحدة من أوهام الكهف الذي لا نجيد العيش إلا فيه، حاصرين عقولنا بما ينعكس على جدرانه، وغايتنا من ذلك هي التدرج للوصول إلى ما اسميناه "الحوار الضمني". قال (ع) في سُحْرَةِ اليوم الذي ضُرِبَ فيه: **ملكتني عيني، وأنا جالس، فسنح لي رسولُ الله (ص) فقلت: يا رسول الله! ماذا لقيت من أمتك من الأود واللدد؟! فقال (ص): "ادعُ عليهم"، فقلْتُ: "أبدلني اللهُ بهم خيراً منهم، وأبدلهم بي شراً مني"**(١٧). إذن فنحن إزاء حديث سانح، يرى فيه الإمامُ رسولَ الله (ص)، ويشكو له أمته، فيطلب منه نبي الرحمة (ص) أنْ يدعو عليهم، لا لهم، ربما لأن في ذلك صلاح لهم، وربما لأنهم يستحقون أنْ يُدعى عليهم، بعد أن تركوا الحقَّ، ومالوا إلى الباطل، أو اختاروا (الحال)، على طريقة سعد بن ابي وقاص، وعبد الله بن عمر، لذا فهما "**لم ينْصُرا الحقَّ، ولم يخْذُلا الباطلَ**"(١٨)، وقد قال عبد الله بن عباس: "**دخلت على أمير المؤمنين، صلوات الله عليه، بذي قار، وهو يخصف نعله، فقال لي: ما قيمة هذه النعل؟ فقلت: لا قيمةَ لها! قال: والله لهي أحبُّ إليَّ من إمرتكم، إلا أنْ أقيمَ حقّاً، أو أدفع باطلا**"(١٩). يا الله، لَكَمْ هو كلام خطير وصادم، أنْ تكونَ النعلُ أحبَّ إلى القلب من الإمرة! تلك فلسفة لا تفهمها هذه الأمة التي تربت على الصراع والغزو والمغالبة، لذا فإنَّ علياً (ع) لا يصلح لها، وهي كذلك لا تصلح له، فلم يبقَ سوى التوجه إلى الله (جل وعلا)، ليأخذ كل ذي حق حقه، فيلتحق الإمام بمن هو خير، ويلتحقوا هم بمن هو شر. ولكن، متى كان الإمام (ع) شراً، ليلتحقوا هم بمن هو أشرُّ منه؟! ذلك هو سؤال التأويل، وتلك هي المنطقة التي يعمل فيها.

إذن فعندما نتحدث عن التأويل بوصفه حواراً، فنحن نتحدث عن حوارنا مع الإمام (ع) عبر كلماته التي تفتح أفق التلقي على الشرح والتحليل والتفسير والتأويل، هذه العملية التي اسميناها "الحوار الضمني"، بمعنى أننا نستحضر الإمام (ع) عبر كلماته، ونحاوره، وتلك عملية لا تقتصر على تلك الحوارات الصريحة أو الضمنية، بل تشمل كل كلمات الإمام التي تحمل ذلك الخزين الكبير من المعاني، اعني الكلمات القصار، الواردة في الجزء الرابع من النهج، فضلا عن وصاياه، ورسائله، وخطبه التي احتوت تلك الكلمات القصار من قبيل: "**قيمة كل امرئ ما يحسن**"(٢٠)، "**الغيبة جهد العاجز**"(٢١)، "**صواب الرأي بالدول، تقبل بإقبالها وتدبر بإدبارها**"، "**لسان العاقل وراء قلبه، وقلب الأحمق وراء لسانه**"(٢٢)، "**سيئة تسوءك خير، عند الله، من حسنة تعجبك**"(٢٣)، "**تذل**

(١٧) نهج البلاغة: ١٢٠
(١٨) نهج البلاغة: ٦١٣
(١٩) نهج البلاغة: ٩٢
(٢٠) نهج البلاغة: ٥٦٧
(٢١) نهج البلاغة: ٦٤٨
(٢٢) نهج البلاغة: ٥٧٠
(٢٣) نهج البلاغة: ٥٧١

الأمور للمقادير، حتى يكون الحتف في التدبير"([٢٤])، "**الغنى في الغربة وطن، والفقر في الوطن غربة**"([٢٥])، "**إذا تم العقل، نقص الكلام**"([٢٦])، "**بقية السيف أبقى عددا، وأكثر ولدا**"([٢٧])، "**نوم على يقين خير من صلاة في شك**"([٢٨])، "**تنزل المعونة على قدر المؤونة**"([٢٩])، "**المرء مخبوء تحت لسانه**"([٣٠])، "**قد أضاء الصبح لذي عينيين**"([٣١])، **إذا أملقتم، فتاجروا الله بالصدقة**"([٣٢])... على تفاوت بين كلمات الإمام (ع) من حيث العمق والبيان، وما يترتب عليه من احتمال. وهنا سنكتفي بواحدة، ولك أنْ تُعَمِّم:

قال الإمام علي (ع): "الناس أعداء ما جهلوا"([٣٣]).

ثمة عناصر ثابتة في هذا النص، أي أنَّ المعجم يعطي لها معنى محدداً، بغض النظر عن السياق هي: (الناس، أعداء، جهلوا)، وثمة عنصر متغير، لأن المعجم لا يعطيه معنى بمعزل عن السياق هو (ما)، وإذا شئنا المقارنة بين المعنيين: اللغوي والسياقي، فإنَّ الأول يشترك في فهمه عامة الناس، والثاني ينفرد به بعض الأفراد، الأول يُدرَك عقليا، والثاني نفسياً وعقليا، الأول يرتبط بأهم وظائف اللغة: الإبلاغ، والثاني يتجاوز ذلك لتحقيق وظائف أخرى. وقد كان ريتشاردز يرى أنَّ الكلمة المفردة التي تأتي معزولة عن بقية الكلمات ليس لها معنى في ذاتها، بل هي تكتسب معناها في السياق، عندما ترتبط بما قبلها، وما بعدها. وكذا الحال بالنسبة إلى الجملة مع العبارة، والعبارة مع النص، فالألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مفردة، بل من حيث ملائمتها للفظة التي تليها. إذن ثمة عناصر ثابتة، وأخرى متغيرة، ظهر منها العنصر (ما). مؤقتا ثمة ثلاثة احتمالات يمكن أنْ تستبطن من السياق:

١- ما: اسم موصول بمعنى الذي، والمعنى: الناس أعداء أي شيء يجهلونه.

٢- ما: مصدرية ظرفية، والمعنى، انَّ الناس أعداء، فيما بينهم، ما داموا جُهّالا.

٣- ما: مصدرية، والمعنى: انَّ الناس أعداء الجهل، لذا، فهم في حرب دائمة معه.

هذه المعاني كلها محتملة ومحترمة، وإنْ كان الذهن سينصرف، لأول وهلة، إلى المعنى الأول، بسبب التبادر الذي جاء من كونه مألوفاً ومتداولاً، لذا، فهو معنى مركزي ومهيمن، إذا ما فاضلنا بينه وبين غيره، ولكن التداول لا يكفي اثباتا لتأكيد المعنى، لا سيما إذا ما تعرض للمحاجة العقلية، والحوار المنطقي، فما معنى: أن الناس أعداء أي شيء يجهلونه؟ هل يعني ذلك أنهم عندما يتعرفون عليه سيحبونه؟ بالتأكيد لا، لأنَّ احتمال

([٢٤]) نهج البلاغة: ٥٦٥
([٢٥]) نهج البلاغة: ٥٧٢
([٢٦]) نهج البلاغة: ٥٧٤
([٢٧]) نهج البلاغة: ٥٧٦
([٢٨]) نهج البلاغة: ٥٧٩
([٢٩]) نهج البلاغة: ٥٩٠
([٣٠]) نهج البلاغة: ٥٩٢
([٣١]) نهج البلاغة: ٥٩٥
([٣٢]) نهج البلاغة: ٦٠٨
([٣٣]) نهج البلاغة: ٥٩٦

الكُرْه قائمٌ بنفس درجة احتمال الحب، فذلك يعتمد على سلوكيات هذا الشيء، فضلا عن تقبلنا لها. أما المعنى الثالث، وإنْ كان وراداً ومقبولاً، إذا ما تفكر الإنسان بالمعاني البعيدة إلا أنه يبدو بعيداً جداً، لذا فنحن نرجح المعنى الثاني: الناسُ أعداء، فيما بينهم، ما داموا جهالا. وهذا ما يفسر الحرب المستعرة بين أبناء المجتمعات الجاهلة المتخلفة، ولهذا قال رسولنا الكريم (ص): "**كنْ عالماً، أو متعلماً، ولا تكنْ الثالثة فتهلك**"([٣٤]). وهو التقسيم نفسه الذي سيكرره الإمام (ع) في قوله: "**الناس ثلاثة: فعالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع، ينعقون مع كل ناعق، ويميلون مع كل ريح، لم بستضيئوا بنور العلم، ولم يلجئوا إلى ركن وثيق**"([٣٥]).

هكذا فإنَّ التأويل حفر في أصول المعنى وأساساته، أو قل هو "اركيولوجيا المعنى". ولا يكون ذلك إلا عبر المرور على العبارة والاشارة والسياق، فإذا ترقينا أكثر، فإنَّ التأويل ليس تحديداً لمعنى لا يُدرّك بشكل مباشر، بل حالة وعي فلسفي، لا ترى في المحدد، بشكل مباشر، سوى حالات رمزية، تحتوي على أسرار الإنسان النفسية، والثقافية، والاجتماعية، والدينية، وهي أسرار يُكشَف عنها عبر امتلاك المفاتيح الضرورية للتأويل.

المبحث الثاني: السؤال الضمني

الإنسان كائن متسائل قلق، وهو الوحيد بين مخلوقات الله (تعالى) يمتلك هذه الملكة، ملكة السؤال والفهم، و"**لسان المؤمن سؤول وقلبه عقول**"([٣٦]) أي يعقل الجواب ويفهمه، ويحاوره، إذا ما خفي بعضه، والمقصود أي سؤال يطرحه الإنسان، أو أي تعجب يثيره، فنحن نتساءل مثلا: ما الحقيقة؟ ما الخطأ؟ ما اليقين؟ من أين جئنا؟ إلى أين نمضي؟ ولماذا وجد الشر؟ إلى آخر تلك الأسئلة التي اعتدنا أنْ نثيرها بمجرد ما نستيقظ من سباتنا اليومي، وننفض عنا غبار الحياة، بما فيها من آراء متواترة وأفكار مسبقة وعادات متأصلة([٣٧]). وتلك هي أسئلة الفلاسفة والحكماء، أما الإنسان العادي، فمشغول بأسئلة أخرى غير تلك، لذا نجد في النهج جواباً عن الاثنين، أي الأسئلة المتعلقة بالكوني والأزلي، وكذلك الأسئلة المتعلقة بوجودنا اليومي العادي، كقوله (ع): "**إذا هبت أمراً، فقع فيه، فان شدة توقيه اعظم مما تخاف منه**"([٣٨])، وقوله: "**كل شيء طلبته في وقتِهِ، فقدْ فاتَ وقْتُهُ**"([٣٩])، وقوله: "**عاتب اخاك بالإحسان إليه، واردد شره بالإنعام عليه**"([٤٠]). فهذه الكلمات تنظم حياتنا، وتعلمنا التصرف الصحيح، وهي إنْ كانت لا ترقى الى مصاف الاسئلة الكبرى، إلا أننا أحوج ما نكون إليها.

إذن، فحياتنا عبارة عن سؤال، نحاور به أنفسنا، ونجادل فيه الآخر، وإذا كان الحيوان يمارس ذلك بالفطرة والغريزة، فإنَّ الفطرة، هنا، لا تكفي، بل قد تتحول إلى مادة خصبة للتندر والضحك على هذا الإنسان الضعيف، إذا ما بقي يراوح بين غريزته وهواه، وقد قال (ع): "**أيها الناس، إنما بدء وقوع الفتن أهواءٌ تُتّبع، وأحكامٌ تُبْتَدع، يخالفُ فيها كتاب الله، يتولى فيها رجالٌ رجالا، فلو أنَّ الباطلَ خلص لم يُخَف على ذي حجى، ولو أنَّ الحق**

([٣٤]) نهج الفصاحة: ٦٣٢
([٣٥]) نهج البلاغة: ٥٩١
([٣٦]) نهج البلاغة:
([٣٧]) ينظر: مشكلة الفلسفة: ٤٨.
([٣٨]) نهج البلاغة: ٥٩٦
([٣٩]) شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد: ج٢٠- ص٣٢٣
([٤٠]) نهج البلاغة: ٥٩٥

خلص لم يكنْ اختلاف، ولكن يؤخذ من هذا ضغث، ومن هذا ضغث، فيمزجان فيجيئان معاً، فهنالك استحوذ الشيطان على أوليائه، ونُجّي الذين سبقت لهم منا الحسنى"([٤١]).

ومن السؤال ينتج الحوار، ليأخذ صيغتين: احداهما مع الأنبياء والصديقين والشهداء، وتلك تأخذ صيغة التسليم، ليقيننا بهم وتولينا إياهم، وأخرى تأخذ صيغة أخرى، ربما أقرب إلى الجدال والمغالطة. وعموما فإنَّ الحوار بصيغتيه: صريح وضمني، ولعل مراجعة "حوارات سقراط" ستكون ضرورية هنا. وإذا كنا قد درسنا معنى واحداً للحوار الضمني، في المبحث السابق، فإنَّ المعنى الثاني الذي نريده يتجلى في مثل قول الإمام: "**يا بُنيَّ إياكَ ومصادقةَ الأحمق، فإنَّهُ يريدُ أنْ ينفعَك، فيضرك، وإياكَ ومصادقةَ البخيل، فإنَّهُ يبعد عنك أحوج ما تكون إليه، وإياكَ ومصادقةَ الفاجر، فإنَّهُ يبيعكَ بالتافه، وإياكَ ومصادقةَ الكذاب، فإنَّهُ كالسراب، يُقرِّبُ عليكَ البعيد، ويُبْعِدُ عنك القريب**"([٤٢]) فهذا المثال، بفقراته الأربع، مكون من جملتين: إنشائية وخبرية، وبينهما سؤال مفترض لسائل غائب أو قل مضمر أو ضمني، وهذا ما سنبينه، بعد أن نبحث عن نظائره من الأمثلة التي تسلك السلوك نفسه، في افتراض سائل، ومن ثم الإجابة عن أسئلته بطريقة حوارية، حجاجية، اقناعية، تفتح العبارة وتغلقها في آن، لأنها تمتلك مفاتيح الكون، والوجود، والحياة، كيف لا ؟ وهي تردد: "**سلوني قبل أنْ تفقدوني، سلوني عن طرق السماوات، فإني أعلم بها من طرق الأرض**"([٤٣]).

لذا أزعم أنَّ أمير المؤمنين (ع) ما أمرنا بشيء، وما نهانا عنه، إلا بَيّن لنا سببه، لأنه (ع) لا يريد أنْ يتركنا في جهالة بما أمرنا به، أو نهانا عنه. نعم، هناك أوامرٌ ونواهٍ، لم يُعطِ أسبابها، ولم يبينْ فلسفتها، أما لأنها واضحة لدى المتلقي، أو لأن لكل مقام مقال، بمعنى أنَّ الامام يراعي مقتضى الحال، فإنْ تطلب بياناً أو تفسيراً أو تأويلاً فبها، وإلا فإنَّ الاكتفاء بالشيء ضرورة تطلّبها المقام، ففي قوله (ع): "**هل تحس له إذا دخل منزلا! أم هل تراه إذا توفى أحداً! بل كيف يتوفى الجنين في بطن أمه! أيلج عليه من بعض جوارحها! أم الروح أجابته بإذن ربها! أم هو ساكن معه في أحشائها! كيف يصف إلهه من يعجز عن صفة مخلوق مثله؟!**"([٤٤]). يطرح الإمام مجموعة من الأسئلة، ولكنه ليس بصدد الجواب عنها، بل بصدد بيان عجزه، وهو القائل: سلوني قبل أنْ تفقدوني، وليس ثمة أي تناقض، لأنه (ع) إنما يتحدث عمّا يستطيع الإجابة عنه، لا ما هو من مختصات الله (تعالى).

١- أول الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه، لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة([٤٥])

([٤١]) نهج البلاغة: ١٠٧
([٤٢]) نهج البلاغة: ٥٦٩
([٤٣]) مسند الإمام علي: ج٧- ص ٧٥
([٤٤]) نهج البلاغة: ٢١٠
([٤٥]) نهج البلاغة: ٣٩

٢- وأشهد أنَّ محمداً عبدُهُ ورسولُه، أرسله بالدين المشهور، والعلم المأثور، والكتاب المسطور، والنور الساطع، والضياء اللامع، والأمر الصادع، إزاحة للشبهات، واحتجاجا بالبينات، وتحذيرا بالآيات، وتخويفا للمثلات([٤٦])

٣- لا يقاس بآل محمد (ع) من هذه الأمة أحد، ولا يُسَوّى بهم من جرت نعمتهم عليه أبدا. هم أساس الدين، وعماد اليقين، إليهم يفيء الغالي، وبهم يلحق التالي، ولهم خصائص حق الولاية، وفيهم الوصية والوراثة([٤٧])

٤- فيما رده من قطائع عثمان: والله لو وجدته قد تُزُوِّجَ به النساء ومُلِكَ به الإماء لرددْتُه، فإنَّ في العدل سعةً، ومن ضاق عليه العدل، فالجور عليه أضيق([٤٨])

٥- ألا وإنَّ الدنيا قد ولت، وإنَّ الآخرة قد أقبلت، ولكل منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإنَّ كل ولد سيلحق بأمه يوم القيامة([٤٩]).

٦- اما إنه سيظهر عليكم بعدي رجل (يقصد معاوية): رحبُ البلعوم، منحدقُ البطن، يأكلُ ما يجد، ويطلب ما لا يجد، فاقتلوه ولن تقتلوه. ألا وإنه سيأمركم بسبي، والبراءة مني، فأما السبُّ، فسبوني، فإنه لي زكاة، ولكم نجاة، وأما البراءةُ، فلا تتبرأوا مني، فإني ولدتُ على الفطرة، وسبقتُ إلى الإيمان والهجرة([٥٠]).

٧- لا تقتلوا الخوارج بعدي، فليس من طلب الحق فأخطأه، كمن طلب الباطل فأدركه([٥١]).

٨- أيها الناس، إياكم وتعلم النجوم... فإنها تدعو إلى الكهانة، والمنجم كالكاهن، والكاهن كالساحر، والساحر كالكافر، والكافر في النار([٥٢]).

٩- جانِبوا الكذبَ، فإنه مجانب للإيمان.. ولا تحاسدوا، فإن الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب، ولا تباغضوا فإنها الحالقة([٥٣])

١٠- لا تقولوا بما لا تعرفون، فإن أكثر الحق فيما تنكرون، واعذروا من لا حجة لكم عليه- وأنا هو- ألم أعمل فيكم بالثقل الأكبر! وأترك فيكم الثقل الأصغر! وركزت فيكم راية الإيمان، ووقفتكم على حدود

([٤٦]) نهج البلاغة: ٤٨
([٤٧]) نهج البلاغة: ٥٠
([٤٨]) نهج البلاغة: ٦٥
([٤٩]) نهج البلاغة: ١٠٣
([٥٠]) نهج البلاغة: ١١٢
([٥١]) نهج البلاغة: ١١٤
([٥٢]) نهج البلاغة: ١٢٧
([٥٣]) نهج البلاغة: ١٤٥

الحلال والحرام، وألبستكم العافية من عدلي، وفرشتكم المعروف من قولي وفعلي، وأريتكم كرائم الأخلاق من نفسي([٥٤]).

١١- دعوني والتمسوا غيري، فإنّا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان، لا تقوم له القلوب، ولا تثبت عليه العقول... واعلموا أني إنْ اجبتكم ركبت بكم ما أعلم، ولم أصغِ إلى قولِ القائل، وعتبِ العاتب، وإنْ تركتموني فأنا كأحدكم، ولعلي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم، وأنا لكم وزيراً، خيرٌ لكم مني أميراً([٥٥]).

١٢- أسألوني قبل أن تفقدوني، فو الذي نفسي بيده، لا تسألوني عن شيء فيما بينكم وبين الساعة، ولا عن فئة تهدي مائة، وتضل مائة إلا نبأتكم بناعقها وقائدها وسائقها، ومناخ ركابها، ومحط رحالها، ومن يقتل من أهلها قتلا، ومن يموت موتا([٥٦]).

١٣- أما والذي نفسي بيده، ليظهرن هؤلاء القوم عليكم، ليس لأنهم أولى بالحق منكم، ولكن لإسراعهم إلى باطل صاحبهم، وإبطائكم عن حقي([٥٧]).

١٤- أنظروا أهل بيت نبيكم، فالزموا سمتهم، واتبعوا أثرهم، فلن يخرجوكم من هدى، ولن يعيدوكم في ردى، فإن لبدوا فالبدوا، وإن نهضوا فانهضوا، ولا تسبقوهم فتضلوا، ولا تتأخروا عنهم فتهلكوا([٥٨])

١٥- لا تنافسوا في عز الدنيا وفخرها، ولا تعجبوا بزينتها ونعيمها، ولا تجزعوا من ضرائها وبؤسها، فإنَّ عزها وفخرها إلى انقطاع، وزينتها ونعيمها إلى زوال، وضراءها وبؤسها إلى نفاد، وكل مدة إلى انتهاء، وكل حي إلى فناء([٥٩])

١٦- أيها الناس، لا يجرمنكم شقاقي، ولا يستهوينكم عصياني، ولا تتزامنوا بالأبصار عندما تسمعونه مني، فوَالذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، إن الذي أنبئكم به عن النبي (ص) ما كذب المبلغ، ولا جهل السامع([٦٠]).

([٥٤]) نهج البلاغة: ١٤٨
([٥٥]) نهج البلاغة: ١٧٤
([٥٦]) نهج البلاغة: ١٧٥
([٥٧]) نهج البلاغة: ١٧٩
([٥٨]) نهج البلاغة: ١٨١
([٥٩]) نهج البلاغة: ١٨٣
([٦٠]) نهج البلاغة: ١٨٦

١٧- أيها الناس.. لا تركنوا إلى جهالتكم، ولا تنقادوا لأهوائكم، فإن النازل بهذا المنزل نازل بشفا جرف هار، ينقل الردى على ظهره من موضع إلى موضع، لرأي يحدثه بعد رأي، يريد أن يلصق ما لا يلتصق، ويقرب ما لا يتقارب([٦١]).

١٨- أفيضوا في ذكر الله، فإنه أحسن الذكر، وارغبوا فيما وعد المتقون، فإنَّ وعده أصدق الوعد، واقتدوا بهدي نبيكم، فإنه أفضل الهدي، واستنوا بسنته، فإنها أهدى السنن، وتعلموا القرآن، فإنه أحسن الحديث، وتفقهوا فيه، فإنه ربيع القلوب، واستشفوا بنوره، فإنه شفاء الصدور، وأحسنوا تلاوته، فإنه أنفع القصص([٦٢]).

١٩- وأحذركم الدنيا، فإنها.. قد تزينت بغرورها، وغرت بزينتها، دار هانت على ربها، فخلط حلالها بحرامها، وخيرها بشرها، وحياتها بموتها، وحلوها بمرها، لم يصفها الله لأوليائه، ولم يضنَّ بها على أعدائه([٦٣]).

٢٠- ولوددت أن الله فرق بيني وبينكم، وألحقني بمن هو أحق بي منكم، قوم والله ميامين الرأي، مراجيح الحلم، مقاويل الحق، متاريك للبغي. مضوا قدما على الطريقة، وأجفوا على المحجة، فظفروا بالعقبى الدائمة، والكرامة الباردة([٦٤]).

٢١- يا عبدَ الله، لا تعجلْ في عيب أحد بذنبه، فلعله مغفور له، ولا تأمن على نفسك صغير معصية، فلعلك معذب عليه، فليكفف من علم منكم عيب غيره، لما يعلم من عيب نفسه، وليكن الشكر شاغلا له على معافاته مما ابتلى به غيره([٦٥]).

٢٢- فبعث الله محمدا (ص) بالحق، ليخرج عباده من عبادة الأوثان إلى عبادته، ومن طاعة الشيطان إلى طاعته، بقرآن قد بينه وأحكمه([٦٦]).

هذه النماذج الدالة، وغيرها كثير، أمثلة مما ورد في نهج البلاغة، وهي تمثل الصيغ التي ورد عليها النموذج الثاني للحوار الضمني، ونعني به الجملتين اللتين تكون الثانية فيهما سبباً للأولى، عبر توسط سؤال افتراضي من الأنا أو الآخر، يُسرع الإمام (ع) في الإجابة عنه، وها نحن نستعرض نماذج من تلك الكلمات، والسؤال المستخرج منها:

([٦١]) نهج البلاغة: ١٩٢
([٦٢]) نهج البلاغة: ٢٠٦
([٦٣]) نهج البلاغة: ٢١١
([٦٤]) نهج البلاغة: ٢١٩
([٦٥]) نهج البلاغة: ٢٤٨
([٦٦]) نهج البلاغة: ٢٥٦

١- كمال الإخلاص له نفي الصفات عنه. لماذا ؟ ...
٢- لا يقاس بآل محمد (ص) من هذه الأمة أحدٌ أبدا. لماذا ؟ ...
٣- ارسله بالدين المشهور، والعلم المأثور، والكتاب المسطور. لماذا ؟ ...
٤- أنظروا أهل بيت نبيكم، فالزموا سمتهم، واتبعوا أثرهم. لماذا ؟ ...
٥- دعوني والتمسوا غيري. لماذا ؟ ...
٦- اسألوني قبل أنْ تفقدوني. لماذا ؟ ...
٧- لا تركنوا إلى جهالتكم، ولا تنقادوا إلى أهوائكم. لماذا ؟ ...
٨- لا تقولوا بما لا تعرفون. لماذا ؟ ...
٩- لا يجرمنكم شقاقي ولا يستهوينكم عصياني. لماذا ؟ ...
١٠- إياكم وتعلم النجوم. لماذا ؟ ...
١١- احذركم الدنيا. لماذا ؟ ...
١٢- إياك ومصادقة الكذّاب. لماذا ؟ ...
١٣- والله لو وجدته زوجت به النساء وملكت به الإماء لرددته. لماذا؟ ...
١٤- لوددتُ أنَّ الله فرق بيني وبينكم. لماذا ؟ ...
١٥- أما والذي نفسي بيده، ليظهرنَّ هؤلاء القوم عليكم. لماذا ؟ ...

من الأمثلة أعلاه نجد أنفسنا إزاء صيغٍ سبعة:
١- الأمثلة (١، ٢، ٣) صيغة الجملة الخبرية التي تستدعي جملة خبرية جواباً.
٢- الأمثلة (٤، ٥، ٦) صيغة الجملة الإنشائية (الأمر) التي تستدعي جملة خبرية جواباً.
٣- الأمثلة (٧، ٨، ٩) صيغة الجملة الإنشائية (النهي) التي تستدعي جملة خبرية جواباً.
٤- الأمثلة (١٠، ١١، ١٢) صيغة أسلوب التحذير الذي يستدعي جملة خبرية جواباً.
٥- المثال (١٣) صيغة الجملة الخبرية (الشرطية) التي تستدعي جملة خبرية جواباً.
٦- المثال (١٤) صيغة الجملة الإنشائية (التمني) التي تستدعي جملة خبرية جوابا.
٧- المثال (١٥) صيغة الإنشاء غير الطلبي (القسم) الذي يستدعي جملة خبرية جواباً.

وربما نجد صيغاً أخرى، إذا ما تتبعنا كلمات الإمام كلها، علما أننا اقتصرنا على الجزء الأول من النهج في هذا التتبع، وهذا يعني أنَّ الإمام- قدر تعلق الأمر بصيغ الحوار الضمني- يُخْبِر، ويأمُر، وينهي، ويُحذِّر، ويُقْسِم، ويتمنى... وذلك كله يحتاج إلى جواب، علما أنَّ الأمرَ والنهيَ هما الصيغتان الأكثر ورودا في كلماته (ع)، بل ربما تكررتا في السياق نفسه، كما في قوله: "**كونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا**"،

وقوله: "**جانِبوا الكذبَ فإنه مجانب للإيمان.. ولا تحاسدوا فإنَّ الحسدَ يأكلُ الإيمان**"، وقوله: "**فأما السب فسبوني.. وأما البراءة، فلا تتبرأوا مني**". أما الجواب، فقد يكون خبراً، وقد يكون إنشاءً، إلا أنَّ الأغلب فيه أنْ يكون خبراً، لذا نرى أجوبة الانشاء تكاد تُعَدُّ على الأصابع، بل هو مثال واحد فقط، من بين الأمثلة الكثيرة السابقة، ورد على هذه الصيغة، قوله (ع): "**يا عبدَ الله، لا تعجلْ في عيب أحد بذنبه، فلعله مغفورٌ له، ولا تأمن على نفسك صغيرَ معصيةٍ، فلعلك مُعذَّبٌ عليه**".

وبعد، فإنَّ الأساليب بمختلف أنواعها، أعني تلك التي تتطلب جوابا يفرضه مقتضى الحال، أو السياق، أو المقام، ستكون مصحوبة بأسبابها وعللها المستقاة من كتاب الله، وسنة رسوله (ص)، والتجربة البشرية، والتاريخ الفعلي الذي حدث على الأرض- لا في مخيلة المؤرخين- على خلاف الأيديولوجيات الأخرى التي وجدَتْ عللها في غير تلك الأصول والآثار، لذا فإنَّ أسبابها لا بد أن تشكل الضد النوعي لكل ما هو قرآني. لذا نجد عند الإمام (ع) الأجوبة التي يحتاجها المؤمن، بل حتى غير المؤمن، لأن الدين ليس نقيضا للعقل، كما يتوهمون. وهذا يعني أنه (ع) من فلاسفة الجواب، وتلك فلسفة تستبطن سؤالها، ذلك أنَّ كل نص، قصيراً كان أم طويلا، غنائياً أم ملحميا، شعراً أم نثراً، إنْ هو إلا جواب عن سؤال ضمني، بل مجموعة من الأسئلة، بل إنَّ بعض النصوص إنْ هي إلا سؤال وجواب في آنٍ، وإلا كيف نفهم قوله (ع): "**وأيُّ سببٍ أوثق من سببٍ بينك وبينَ اللهِ، إنْ أنتَ أخذْتَ به**"([٦٧])، أو قول المتنبي: "**وما انتفاع أخي الدنيا بناظره..... إذا استوت عنده الأنوار والظلم**"([٦٨])، أو قول السياب في "سفر أيوب": "**ألم تعطني أنت هذا الظلام؟/ واعطيني أنت هذا السحر؟/ فهل تشكرُ الأرضُ قطرَ المطر؟!/ وتغضب إنْ لم يجدها الغمام؟!...**"([٦٩]).

لذا أراني اختلف مع الدكتور زكريا إبراهيم، عندما قسم الفلاسفة إلى فلاسفة السؤال وفلاسفة الجواب([٧٠])، فالفيلسوف الحقيقي، هو الذي يجمع بين الاثنين، ولا يمكن أنْ نتخيلَ فيلسوفاً يجيد طرح الأسئلة فقط، من دون أنْ يملك جواباً عن أي سؤال، صريحاً كان أم مضمراً، ذلك أن الاختبار الحقيقي للفيلسوف، لا في طرح الأسئلة فحسب، بل في ابداع الأجوبة، وإنتاج المفاهيم([٧١])- وليس ثمة مفهوم فارغ، بل هو محمل برؤية ما، وإلا لم يكن مفهوماً- عبر الانتماء إلى منظومة ما، ستشكل الأرضية التي ينطلق منها في اتساق اجوبته وانسجامها وتماهيها في بعضها، ولعل من سوء حظ الفيلسوف، كما يرى الدكتور زكريا ابراهيم "أنه ما يكاد يخطو بضع خطوات، في ميدان التفكير الفلسفي، حتى يتعرض لخطر المذهبية، ويصبح أسيراً لمذهب بعينه، لا يستطيع منه فكاكاً. أما الفيلسوف الحقيقي، فإنه لا يمكن أنْ يرى في الفلسفة سوى مخاطرة روحية يقوم بها إنسان لا يملك أنْ يضع حداً لعملية حوار "الذات مع الذات"، لأن هذا الحوار، عنده، فعل لا ينقطع أبداً"([٧٢])

([٦٧]) نهج البلاغة: ٤٧٦
([٦٨]) ديوان المتنبي: ٣٣٢
([٦٩]) ديوان السياب: ج١- ٣٠١
([٧٠]) ينظر: مشكلة الفلسفة: ١٤
([٧١]) ينظر: ما هي الفلسفة: ٥
([٧٢]) مشكلة الفلسفة: ١٤

كل ذلك، بالنسبة للمثقف المؤمن، مشروط بالانفتاح على المطلق، لأنْ فيوضاته (سبحانه) لا تحدها حدود "**ولا نعت موجود، ولا وقت معدود، ولا أجل ممدود... أول الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه، لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة**"([٧٣]). ولعل قيمة النهج تكمن هنا في تلك المعرفة والفيوضات النورانية التي كانت سبباً في هذا الكم من الحكمة، التي قرأت ذلك الوجود اللامتناهي من دون أنْ تحده أو تعده أو تقول فيمَ؟ أو علامَ؟ ذلك أنها ترى بنور الله (سبحانه)، فكيف لها أنْ تصف ما ترى به؟! لذا لم يبق إلا التمثيل والصور المقربة: "**الله نور السموات والأرض، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور، يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم** "([٧٤])

المصادر

- القرآن الكريم

١- استراتيجية التسمية: مطاع صفدي، مركز الانماء القومي- بيروت، ط١- ١٩٨٦

٢- الإله الخفي: لوسيان غولدمان، تر: د. زبيدة القاضي، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب- دمشق، ٢٠١٠

٣- حياتي في الشعر: صلاح عبد الصبور، دار اقرأ- بيروت، ط١- ١٩٨٣

٤- دليل الناقد الأدبي: سعد البازعي وميجان الرويلي، المركز الثقافي العربي- الدار البيضاء، بيروت، ط٣- ٢٠٠٢

٥- ديوان أبو الطيب المتنبي، دار بيروت- بيروت، ١٩٨٣

٦- ديوان بدر شاكر السياب: دار العودة- بيروت، ط١- ٢٠١٦

٧- الرافد لألفاظ القرآن الكريم: وضعه: رافد مصطفى البدر، منشورات ذوي القربى- إيران، قم، ط١- ١٣٩١ هـ ش

٨- شرح أصول الكافي: صدر الدين محمد بن إبراهيم الشيرازي، تحقيق محسن عقيل، دار المحجة البيضاء- بيروت.

٩- شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد المعتزلي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. دار الكتب العلمية- بيروت.

([٧٣]) نهج البلاغة: ٤٠

([٧٤]) سورة النور: ٣٥

١٠- الغدير في الكتاب والسنة والأدب: العلامة عبد الحسين أحمد الأميني، مؤسسة دار معارف الفقه الإسلامي، ط٥- ١٤٣٠ هـ/ ٢٠٠٩ م

١١- لسان العرب: ابن منظور، دار احياء التراث العربي- بيروت، ط٣- ١٩٩٩

١٢- ما هي الفلسفة، جيل دولوز، وفليكس غيتاري، ترجمة: مطاع صفدي، مركز الانماء العربي- بيروت، ط١- ١٩٩٧

١٣- مختار الصحاح: محمد بن أبي بكر الرازي، دار الرسالة- الكويت، ١٩٨٣

١٤- مسند الإمام علي: حسن القبانجي، تح: طاهر السلامي، مؤسسة الاعلمي- بيروت.

١٥- مشكلات فلسفية، مشكلة الفلسفة: د. زكريا إبراهيم، دار مصر للطباعة.

١٦- نهج البلاغة، الإمام علي (ع)، جمع وترتيب الشريف الرضي، تح: هاشم الميلاني، مطبوعات العتبة العلوية، ط٧- ٢٠١٥

١٧- نهج الفصاحة الحاوي لقصار كلمات الرسول (ص): حققه ورتبه: غلام حسين المجيدي، مؤسسة انصاريان- ايران، قم، ط٢- ١٤٣٠ هـ